

القاهرة لا تنام.

لا ينقطع سيل المارة والسيارات، والساهاون المتفرقون على عشب قليل في الميادين، يبحثون عن نسمة هواء مفترشين مساحات خضراء تنقرض يوماً بعد يوم، ويتفرقون على الكباري، يتأملون النيل الراكد، وخلفهم أنوار نيون تضيء وجوههم المغبرة، حتى أن المنتظرين على النواصي يتغالبن مع النعاس، ويدخلون في النهاية بما يشبه أحلام اليقظة. تحس أنهم لا يعرفون طعم النوم وأنهم في منتصف الأشياء، فيختلط الليل بالنهار، الهمبرغر بالطعمية، والفول بالبيتزا، في انفتاح فاضح على خارج، وانسحاب عشوائي إلى الداخل.

ثمة أسئلة بديهية يعاد طرحها في ثقافة القاهرة، من التشريق والتغريب، الأصالة والحداثة، الاشتراكية المقفلة، والديموقراطية الهشة، إلى الأسلمة والعلمنة. إنهم ينفضون الغبار عنا شعارات كانت مطمورة في رمل الذاكرة. من الفرعنة و«التمصير» ومن ثورة سعد إلى ثورة يوليو. وثمة فوضى في زي الأحزاب، واجترار أفكار، وأصوليات إسلامية أو قبطية بالإضافة إلى أصوليات ماركسية وغيرها من أخوات الأيديولوجيا.

إنهم يعيدون خلط الأوراق في الفكر والثقافة والأيديولوجيا، في عملية طرح أسئلة صوب أجوبة مبهمه.

في كل فنادق الشرق ثمة نافورة في قاعة الاستقبال، نافورة ماء يتكرر من بعضه البعض، يشبه الكلام العربي الذي يتغذى من نفسه مجترراً قاموس مفرداته، وحدهم السياح يفترقون باطمئنان على المقاعد الجلدية، فتشاهد يابانياً يلتقط صورة تذكارية أمام النافورة، في محاولة لالتقاط ذبذبات عقلنا، ومصادر ثقافتنا!